الأحلام

قصة للكاتب السوفيتي
يوري ناجيبين

في أيام صباي كثيرا ما كنت « احلم » احلاما ملونة ، وعندما كنت أقصها على والدي لم يكونا يصدقان ، بل كانا يسخران مني قائلين : «ان أحدا لا يمكن أن يحلم احلاما ملونة ».

ومرت أعوام كثيرة ، ولكي أشفي نفسي من الاحساس بالغيظ كتبت قصة قصيرة سميتها « الاحلام » وهي قصة صبي اجتاز نفس التجربة .

والان ، وقد أصبح عمري تسعا وعشرين سنة ، ما زالت تراودني نفس الاحلام الملونة ، الا أنني لا أخبر بها أحدا من الناس ، لان هذه الرؤى الواضحة تروق لي اليوم بالوانها الفضة البسيطة .

وربما كانت هذه هي القصة الوحيدة التي اخترعتها ، أما ما عداها من القصص الاخرى فله أصل في الحياة التقيت به في خملات الصيد في مقاطعة ميشتشيرا ، وفي رمال كاراكوم على برزخ كارليتان ، وفي الاماكن الاخرى التي زرتها كمراسل لصحف موسكو .

ومع انني اشتغلت بكتابة القصة عشرين عاما ، فانني لا اعرف بعد كيف أصمم خطة لقصصي ، فأنا دائما انطلق من واقعة حقيقية ، شهدتها بنفسي عادة ، او في النادر سمعتها من شخص آخر .

لقد كتبت عن اقاليم كثيرة من الوطن ، حيث كنت ـ وأنا ابن موسكو ـ أعيش واعمل في بداية الحرب ، وعن الحرب التي شاركت فيها ، وكتبت عن الاطفال ، لانني ـ كأي انسان آخر ـ كنت طفلا في وقت ما ، وكتبت عن الرياضيين ، وعن صيادي الاسماك وصيادي الوحوش ، لانني مارست هذه الاشياء بنفسي كذلك كتبت عن فئات كثيرة من الناس الذين اتصلت حياتي بحياتهم ، لا لانني متقلب كقصاص بنوع خاص ، فأنا لم أكتب مطلقا عن العلماء أو الفلاحين ، أو المساحين ، أو الغواصين في أعماق البحار ، والحقيقة انني لا أستطيع ان أحصي جميع فئات الناس الذين لم أكتب عنهم ، وربما لا يكون من المحتمل أن أكتب عنهم مطلقا .

لكن الحياة نفسها تقدم معونتها للكاتب الذي لا يعرف كل شيء ، لكي يواصل سيره في الكون .

أليس في كل واحد منا ثروة دائمة من الاكتشافات ؟

أليس في كل انسان ذخيرة غير محدودة من المادة الصالحة للفن ؟

ي . ناجيبين

كان من المعتاد ان يذهب ديما وساشا كل يوم الى المدرسة معا ، وان يعودا منها معا ، كما اعتادا ان يمارسا العابهما معا في نفس الفناء ، وان يتناولا وجبات الافطار والغداء والعشاء معا كذلك . حتى أماهما تعلمتا في معهد واحد ، وتقيم الاسرتان معا في نفس الطابق ، كما يثق الصبيان في رعاية نفس الجدة .. جدة ديما ..

لم يكن لهذين الصبيين اختيار في هذه الصداقة ولكنهما اضطرا أن يكونا صديقين ، رغم تفاوت السن والمركز الاجتماعي : فديما كان في العاشرة من العمر، وعضو في جمعية الكشافة .

أما ساشا ففي السنة الاولى بالمدرسة ، وكل احلامه ان يلبس رباط العنق الخاص بالكشافة . وساشا فخور بأن يكون له اصدقاء من بينهم صديق ثالث مشترك بينه وبين ديما .

وأما ديما فلم يكن يشغل باله في قليل او كثير ان يكون في حماية هذا الصبي الصغير ، اذ لم تكن هذه الرعاية من ديدن ساشا المعروف بشرثرته غير المحتملة .

أنهما يخرجان الان من المدرسة ، ويصيح ساشا بصوت يشيع فيه المرح :

ـ أليست تشبه الكتاكيت الحديثة الولادة تماما ؟

وسأله ديما بخشونة :

ـ ما هي ؟

ألقى ديما سؤاله هذا بالرغم من انه كان يعرف تماما ما الذي يتحدث عنه ساشا .

كان شجر الاسفندان السامق يرتفع فوق سور الحديقة . حديقة المدرسة ، وتتهدل اغصانه الطويلة ممتدة بأوراقها الصفراء الشاحبة فوق الطريق .

كنا في بداية شهر نوفمبر ، وكانت كل الاشجار الاخرى في الشارع قد القت أوراقها منذ امد طويل، ما عدا شجر الاسفندان ، فقد كان وحده ما يزال ملتفا

برداته الذهبي الاخير .

ويقول ديما بعصبية :

ـ هذه ليست كالكتاكيت تماما ، فالكتاكيت كروية الشكل ، اما هذه الاوراق فمسننة . ووافق ساشا وهو يقول بخفة :

ـ أجل ، هذا صحيح ، فتلك اكثر شبها بمنظر الايدي ذات الاصابع المنبسطة .. انظر . ثم قال ضاحكا، وهو يشير الى كومة من الاوراق السوداء المتعفنة الملتصق بعضها ببعض :

ـ ولكن هذه الايدي لم تغسل منذ امد طويل .

ولم يجب ديما بشيء ، لان من ديدن ساشا ان يغضب حينما يتحدث عن جميع انواع الاشياء غير المحسوسة وغير المتوقعة ظاهريا ، وكان اسوأ ما في الامر ان هذه الملاحظات العابرة تماما ، كثيرا ما تكون سارة بالنسبة للصبية الكبار .

بالامس كانت أم ساشا تنهي الى أبيه ان فيرونيكا ابنة خالة ساشا قادمة لزيارتهم ، فصاح ساشا ، الذي تصادف وجوده في الحجرة حينئذ :

ـ فيرونيكا ؟ ـ ثم كررها بلهفة ـ يا له من اسم محبوب . فيرونيكا .. انه اشبه بطائر أبيض ، يحلق عبر البحيرة .

وحينما انصرف ساشا أبدى والد ديما ملاحظته قائلا :

ـ يالشغف هذا الفتى الصغير .

وقال ديما بغيرة :

ـ انه يتظاهر فحسب .

قال ذلك وهو يعرف من كل قلبه ان ساشا لم يكن يتظاهر لسبب واحد : انه لم يتذكر مطلقا اسلوبه البارع، وهذا وحده جعل ديما شغوفا على الدوام بان يظهر للجميع ان ساشا لا يهتم بشيء على الاطلاق ، لانه شيطان فارغ الرأس . وانطلق صوت ساشا مرة اخرى:

ـ اوه .. انظر الى اعلى .. الى ذلك الرجل الذي هناك ، انه سيهوي على وجهه خلال دقيقة واحدة .

ونظر ديما الى أعلى ، فرأى رجلا متقدما في السن ، ذا شاربين أشقرين متموجين ، يقف فوق سطح بيت مكون من طابقين .

كان الرجل يولي وجهه شطر مجموعة من الصبيان الكبار ، الذين كانوا يثبتون سلسلة من المصابيح الملونة على طول ميازيب المياه .

ان شاربيه المهيبين كانا يهتزان في الهواء ، انهما يبدوان في الحقيقة وكأنما يمكن ان يطيرا مع الهواء في اية لحظة . وقال ديما لنفسه في تبرم :

ـ احسب أنني رأيته بنفسي في وقت ما .

ونظر حوله فرأى في ناحية من الشارع استعدادا يجري على قدم وساق ، انتظارا ليوم العيد ، فهنا نقاش في مئزره الابيض يطلي واجهة الباب ، وهناك سيدتان، احداهما متقدمة في السن ، والاخرى شابة ، تثبتان بالمسامير شريطا احمر من نسيج الرايات ، نقش عليه بالطباشير البيضاء شعار الحرب، وعند نهاية الشارع احد الاشخاص يثبت علما مستطيل الشكل على واجهة بيت مكون من سبعة طوابق .

وانفرجت اسارير ديما عن ابتسامة سرعان ما اخفاها ، وقال وهو ينظر بطرف عينه الى ساشا :

ـ لقد وعدني ابي أن يصطحبني للتمتع بالمهرجان ، سوف نسير معا كرجلين .

ولم يجب ساشا بغير التنهد العميق ، فابوه ـ وهو عالم من علماء الارصاد الجوية ـ كان يعمل في محطة بمنطقة الرياح القطبية ، ولم يكن ساشا قد سمع صوت ابيه لاكثر من عام الا عن طريق الاذاعة ، وحتى في ذلك الوقت لم يكن ساشا يميز صوت ابيه ربما لان اباه حينما يتحدث على الهواء كان يتحدث وكأنه يخاطب جميع الاطفال في موسكو ،لا ساشا وحده . وقال ديما في بشاشة :

ـ .. وابي سيبتاع لي علما ،وسوف يكون طابورنا اقرب الجميع الى الضريح الضخم .

وقال ساشا وهو يتنهد بعمق من جديد :

ـ أنت محظوظ .

أن ساشا يشعر بالاسى ، ولكنه لم يكن يجب ان تبدو عليه مظاهر الحزن ، كان يجب ان يبدو سعيدا ،وان يحتفظ بمرحه واعجابه بالحياة .

انه الان وقد شارف جانب الشارع المألوف له ، وكان يراوده الامل في ان يجد شيئا يبتهج له ، ومع ذلك فان كل شيء وقع عليه بصره كان يتحدث عن قدوم العيد ، والعيد سيجعله يفكر في الحقيقة المرة، وهي ان اباه ما زال غائبا .

وبدأ ساشا ببطء وكأنه يستعيد في ذاكرته شيئا ما:

ـ لقد رأيت حلما جميلا في الليلة الماضية ..

ومن جديد غمرت وجهه الابتسامة وهو يقول :

ـ .. لقد رأيت انني أبحر على سفينة تمخر عباب البحر ، وكانت مياه البحر زرقاء .. زرقاء جدا ، وفجأة حوّم فوقنا سرب من الاسماك ، كان يحلق فوق رؤوسنا ، كانت جميع اسماكه ملونة بالوان ذهبية او فضية او حمراء ،وهو ـ كما تعرف ـ يرفرف بزعانف تشبه الاجنحة ، محلقا فوق السفينة ، واختطفت سنارة الصيد ، والقيت بها في الهواء بدلا من الماء ، واخذت اصطاد . لقد اصطدت كميات ضخمة من هذا السمك ، وفجأة اشتبكت سنارتي بسارية السفينة ،فاخذت اجذبها .. واجذبها . وهنا استيقظت. أليس جميلا هذا الحلم ؟

ووافق ديما ، وهو يقول برزانة :

ـ بلى ، لقد كان كذلك .

وبدأ يعجب لماذا كان هو يحلم طوال الليل بهذين

الخزانين اللذين لا يوحيان بشيء من البهجة ، وانما هما كالمسائل الحسابية ، وكيف كان الماء الكدر يتسرب ببطء من احد الخزانين الى الخزان الاخر .

وفجأة نظر الى ساشا ، وسأله بجد ، وقد اجتاح وجهه تعبير غريب :

ـ هل كان البحر شديد الزرقة ؟

ـ نعم ، كان أزرق الى حد انه يشبه لون السماء الان .

ـ والاسماك .. هل كانت ملونة باللون الذهبي ، واللون الفضي ، والالوان الاخرى ؟

ـ نعم ، الحمراء ، والقرمزية .

ـ الم تكن هناك اية واحدة ملونة باللون الرمادي الداكن ؟

ـ لم يكن هناك شيء من هذا بالمرة .

وقال ديما وهو يحد النظر اليه :

ـ أنا على يقين بأن الامر ليس كما تقول ، فليس هناك شيء من هذا على الاطلاق : لا الاسماك ، ولا البحر ، و حتى الحلم نفسه .

واخذت شفتا ساشا ترتجفان وهو يسأل بصوت خافت :

ـ ولم لا ؟

ـ الا تعرف ان احلام الناس دائما ملونة باللون الرمادي وحده ؟ اجل ، أنها كذلك بالتأكيد ..

احلام دائما رمادية .. اسأل اباك . اما انت فمختال ، ومختلق .

واعتصم ساشا بالصمت المطبق ، بينما واصل ديما حديثه بلهجة المنتصر :

ـ والان ..انا اعرف عنك كل شيء .. اعرف انك انت الذي لطخت ذيل فلوبير .

كان فلوبير هذا كلبا من كلاب الصيد ، ابيض الفراء عمره شهران ، ذا وجنتين بنيتي اللون ،ومنذ بضعة ايام وهو يجول بذيل ملطخ بالحبر البنفسجي ، الا انا احدا لم يكتشف من الذي جنى عليه هذه الجناية .ان ساشا قد اختلق لذلك رأيا جريئا ، مضمونه ان كبار الحمام كانت تلتقط فتات الخبز من على قاعدة النافذة وهي التي اقترفت هذه الجناية ، حينما نقرت احداها مصراع النافذة فدفع المصراع بدوره زجاجة الحبر ، فسقطت، وهنا أراقت الحبر على ذيل فلوبير ، لان هذا الجرو كان دائما يتشمم حول النافذة .

وانفجر ساشا بحرارة يقول :

ـ لست أنا الذي فعلت ذلك ، وأقسم بشرف الكشافة .

وقال ديما بطريقة تأديبية :

ـ أنت ـ في المقام الاول ـ لست كشافا . ثم انك لم تكن وحدك حينما .. وأطلق ضحكة ساخرة ، وهو يكمل :

ـ .. حينما كنت تحلم احلامك الملونة . ثانيا انك انت الذي لطخت ذيل فلوبير ، بقصد ان تلفق هذا الهراء الذي اختلقته عن الحمام ، ولكي تظهر لنا كم انت بارع في التلفيق .

لم يكن ديمانبيلا في انتصاره ، ففي نفس اليوم عرف ساشا عندما دخل الفناء ان لقب السخرية الذي اطلقه عليه ديما ، وهو لقب « المختال » ، سيظل عالقا به امد طويل .

وكان صبر الناس الذين يقيمون في المنزل على هذا الصبي قد نفد من كثرة ما ادعى انه يحلم احلاما ملونة، ولهذا قالت والدة ديما :

ـ نحن وحدنا المسئولون عن سلوك هذا الصبي ،فقد اعتاد ان يسمع منا جميعا الى كلمات الثناء والاعجاب بكل افكاره .

وقالت ام ساشا :

ـ دعوه يحتفظ باكبر قدر ممكن من الافكار التي يحبها ، فأنه لن يستطيع ان يزعم ان كل الاشياء التي يتخيلها حقيقية .

ومع هذا فقد كان فلوبير هو وحده الذي لا يزال يتمسح برجلي ساشا بنفس الثقة التي هو جدير بها ، وكان ساشا ينظر الى ذيله البنفسجي ، وهو يفكر بقلق :

ـ أمن الجائز أن أكون أنا الذي لوثت ذيله ؟

وهكذا لم يكن هذا اليوم سعيدا بالنسبة لساشا، ألا أن الليل عوضه بسخاء عن كل المحن التي نزلت به . فقد رأى في المنام ان اباه قد عاد بالطائرة من جزيرة الجليد الطافية ،ونزل بالمظلة على يمين الفناء ، وهو يقول له :

ـ لقد خشيت ان أجيء متأخرا عن موعد المهرجان.

قال ذلك وهو يأخذ بيد ساشا ، ويصحبه الى الشارع حيث كل انسان يمرح، ويحاول ان يدخل السرور على نفسه . وأخذ ساشا يسير مبهور النظر من ذلك الحشد الذي يلبس ملابس العيد الزاهية .

ومن لاءلاء الزرقة العميقة في السماء ذات السحب البيضاء المتموجة .

ومن الابواق النحاسية البراقة . ومن الحمرة المتوهجة في نسيج الرايات التي تحمل الشعارات ومن البالونات الزرقاء والخضراء والقرمزية السابحة في الهواء.

كان يسير وفي يده علم أحمر ، وقد تدلت من عنقه ربطة العنق الخاصة بالكشافة ،المصنوعة من المادة التي كان ديما يتحدث عنها دائما .

وكان فلوبير بجانبه يركض على الطريق بخيلاء ،وهو يزهو بذيله المصبوغ باللون البنفسجي المرفوع الى اعلى في الهواء .

القاهرة

ترجمة رضوان ابراهيم